قراءة تحليلية في قصيدة كُثَيِّر عزّة في مدحِ عبدِ الملكِ بنِ مروان

An Analytical Reading of Katheer Azza's Poem in Praise of Abd al-Malik ibn Marwan

عبد العزيز موسى درويش علي*

جامعة البلقاء التطبيقية/ كلية الأميرة عالية الجامعية

قسم اللغة العربية وآدابها

البريد الالكتروني draziz24@bau.edu.jo

تاريخ الإرسال: **2023-12-12** تاريخ القبول: **2024-04-23**

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة نصيّة تحليلية لقصيدة كثيّر عزة في مدح عبد الملك بن مروان، فرصدت الدراسة حالة الشاعر المتشظية بين حالين: حال ذكريات الماضي المتمثلة في حياة الوصال بالمحبوبة وحال معاناته من هجر المحبوبة، وكأنّ الشاعرَ يلجأ إلى إسقاط هذين الحالين على ما في نفسه من صراع فكري وتَشَظٍّ لذاته الحائرة بين حالين أيضاً: حال التبعية لآل البيت وحبّه لهم وحال ما يُمليه عليه واقع المتغلّب القوي فيتحول بولائه إلى بني أُميّة.

وعلى الصعيد البنائي والفني فقد برزت عناية الشاعر بالوصف التفصيلي، والتنسيق الدقيق في عرض موضوعاته، وكانت صوره البيانية وكناياته مستوحاة من بيئته البدوية.

الكلمات المفتاحية: كثيّر عزة؛ عبد الملك؛ ردة فكرية؛ ركائز المُلك

Abstract:

This study aims to provide an analytical textual reading of Kathir Azza's poem in praise of Abd al-Malik bin Marwan. The study traced the fractured instance of the poet, which was the state of memories represented by a life of connection with his beloved and the state of his suffering from abandonment by his beloved. It is as if the poet were resorting to dropping these two situations on his intellectual struggle and fragmenting his bewildered self between these two states: the state of subservience to the Al-A-Bayet family and his love for them, and the state of what is dictated to him by the reality of the mighty conqueror, so his loyalty turns to Bani Omayiah. On the structural and artistic level, the poet's attention to detailed description and precise coordination in presenting his topics was evident, and his Bedouin environment inspired his graphic images and metaphors.

Keywords: Katheer Azza; Intellectual apostasy; Pillars of kingship.

* ـ **المؤلف المُراسل.**

مقدمة:

لعل كُثيّر عزّة[1] من أبرز الشعراء الذين برعوا في فنَيّ الغزل والمديح، ويُعدُّ شعره مادةً ثرية لدراسة هذين الفنين[2]. ويتجلّى هذان الفنّان في قصيدتنا موضوع الدراسة، لذلك تسعى هذه الدراسة لاستجلاء المضامين الفكرية الكامنة في هذين الغرضين، والكشف كذلك عن جماليات التعبير الشعري فيهما.

أمّا عن إشكالية الدراسة فتتمثل في التساؤل عن عقيدة كُثير عزة وولائه لآل البيت، فهل تُنْبِئ هذه القصيدة عن رِدّة فكرية لدى كثيّر عزّة جعلته يترك ولاءَه لآل البيت ويتحول بولائه إلى بني أمية؟ أم هل كان يُظهر خلاف ما يُبطن، فكان يمدح عبد الملك بن مروان والأمويين اتّقاءً لشرّهم واستدراراً لعطائهم؟

وقد اتبعت الدراسة لتحقيق هذه الغاية المنهجَ الوصفي التحليلي. وهذه القصيدة هي أول قصيدة أنشدها كثيّر عزّة بين يدي عبد الملك بن مروان، بعد أنْ تحوّلَ من ولائه لآل البيت إلى الولاء للأمويين، وقد أنشد كُثيّرٌ عبدَ الملك في هذه القصيدة كلَّ ما طابَ له أنْ يسمعَه، وأعلنَ فيها ارتدادَه عن المذهب الشيعي، وصيرورته إلى حظيرة الأمويين.

وقد بلغت هذه القصيدة ثمانيةً وسبعين بيتاً. ثلاثة وعشرون منها في الغزل ووصف الناقة والرحلة، والباقي في مدح عبد الملك بن مروان وأبيه وذويه، إذن القصيدة تتألف من لوحتين رئيسيتين: الغزل- المدح.

اللوحة الأولى: الغزل

---

(1) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح من خزاعة، شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر ولد في آخر خلافة يزيد بن عبد الملك. يُنظر للمزيد عن ترجمته: المرزباني، أبو عبيد الله محمد ابن عمران، (1982م) معجم الشعراء، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(2) ينظر: عليان، أحمد محمد، (1992م) ، كُثير عزة: عصره حياته وشعره، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص 51 وما بعدها.

استهل كُثيّرٌ لوحةَ الغزل باكياً على أطلال المحبوبة التي ارتحلت وخلّفت وراءَها الذكرياتِ المريرةَ، فبدا الشاعرُ حزيناً، فاستوقفَ رفيقَيْه وأعلنَ لهما أنّه حرّمَ الماءَ على نفسه حزناً على فراق محبوبته أم الحكيم:(3)

خَليلَيَّ إِن أُمُّ الحَكيمِ تَحَمَّلَت   وَأَخلَت لِخَيماتِ العُذَيبِ ظِلالَها
فَلا تَسقِياني مِن تِهامَةَ بَعدَها   بِلالاً وَإِنْ صَوبُ الرَبيعِ أَسالَها

ثم تراه يعبّرُ عن تعلّقه بمحبوبته بطريقة العاشق المستهام، فما عاد يرى جمالاً وبهاءً في المنازل والأحياء بعد أن هجرتها المحبوبة، فبعد أن كان راضياً مطمئناً إلى جوارها أصبح يشتكي ما أصابه من المكروه والوبال، ولا يرى كُثيّر ضيراً في كشف ما يعتلج في خلده من حرقة العشق ولهيبه.(4)

وَكُنتُم تَزينونَ البَلاطَ فَفارَقَت   عَشِيَّةَ بِنتُم زَينَها وَجَمالَها
وَقَد أَصبَحَ الراضونَ إِذ أَنتُم بِها   مَسوسُ البِلادِ يَشتَكونَ وَبالَها
إِذا شاءَ أَبكَتهُ مَنازِلُ قَد خَلَت   لِعَزَّةَ يَوماً أَو مَناسِبُ قالَها(5)

وهذه الحال الحزينةُ التي يعيشُها كُثيّر مستديمة قد استقرت في نفسه وسكنت بين جنبيها، فلا يمكنُ لمن قتله الهوى أنْ يكونَ خالياً من الهمّ والحزن، ومهما نسي من الأمور فلا يمكن أن ينسى يومَ رحيلِها، وما خلّفته في نفسه من الألم:

فَهَل يُصبِحَن يا عَزُّ مَن قَد قَتَلتِهِ   مِنَ الهَمِّ خِلواً نَفسُهُ لا هَوىً لَها
وَما أَنسَ مِنَ الأَشياءِ لا أَنسَ رَدَّها   غَداةَ الشَبا أَجمالَها وَاحتِمالَها(6)

فهذا السؤالُ الاستنكاري يفضحُ لواعجَ العشق التي اعتملت في صدر الشاعر، ويَشي بمدى تعلّقِه بالمحبوبة الراحلة، وهذا بديهي؛ فقد عاشَ الشاعرُ في سالف عمره حياةً هانئةً بجوار محبوبته يشملُهما العشقُ ويعمُّهما الأمنُ من تغيّر الزمان وصروف الدهر، فكانا

(3) كُثير عزة، عبد الرحمن بن الأسود، (1971) ديوانه، جمع وشرح: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ص75

(4) ينظر: القط، عبد القادر، (1979)، في الشعر الإسلامي والأموي، بيروت: دار النهضة العربية، ص145 وما بعدها.

(5) كُثير عزة، ديوانه، ص75

(6) السابق، ص76

كأليفين لا يطيقُ أحدهما فراقَ الآخر، والإنسانُ ما انفكَّ يحنُّ إلى الماضي وما فيه من ذكريات، ولا سيّما إذا كان هذا الماضي جميلاً

وَقَد لَقَّنا في أَوَّلِ الدَهرِ نِعمَةٌ　　فَعِشنا زَماناً آمِنينَ انفِتالَها

كَآلِفَةٍ إِلفاً إِذا صَدَّ وِجهَةً　　سِوى وَجهِهِ حَنَّت لَهُ فَارعَوى لَها

فَلَستُ بِناسيها وَلَستُ بِتارِكٍ　　إِذا أَعرَضَ الأُدْمُ الجَوازي سُؤالَها[7]

ويجسد الشاعر رفضه لمبدأ نسيان المحبوبة، ذلك الرفض المشوب بالتوكيد من خلال حرف الجر الزائد المكرر بعد النفي في الحالتين، أقول: إن ذلك يجسد أقصى ما وصل إليه الشاعر من الحرقة على فراق محبوبته. وهو مصرٌّ على تلك الحرقة؛ فباجترار الذكريات يضع نفسه في مهب الآلام والأحزان، وفي النسيان سلوى له - لو كان يريدها - لكنه رافضٌ النسيان، وكأنه يشتقّ المتعة من تلك الذكريات على الرغم مما تجلبه من آلام.

وهذا الحسّ لا نجده جلياً عند غير كُثيّر من الشعراء الأمويين، فنراه يُشرّح المشاعر تشريحاً يُذكّرنا بأسلوب الشعراء الوجدانيين، ويصوّر لنا قلبه يتموّج وهو يذكر هواه في صباه، فينتقل من حال إلى حال، ويراوح بين الفرح والحزن.[8]

ويبرز ذلك من خلال المونولوج الداخلي، فقد جرّد من نفسه شخصا آخر وشرع يحاوره: أيمكن أن ألقى السعدى بلقاء المحبوبة؟ أيمكن أن تصدق الطير التي خبرتني بذلك؟ وإنْ صدقت فهل حان موعد ذلك أم هل هو بعيد؟ ويصل إلى نتيجة يهدِّئ بها من روعه وشتات التساؤلات؛ فعلى كل الأحوال عليه أن ينتظر فلا بدَّ يوما أن ينال مراده:

أَأُدرِكُ مِن أُمِّ الحكيم غبطَةً　　بِها خَبَّرَتني الطَيرُ أَم قَد أَنى لَها

أَقولُ إِذا ما الطَيرُ مَرَّت سَحيقَةً　　لَعَلَّكَ يَوماً فَانتَظِر أَن تَنالَها[9]

ثم قرر الشاعر أن يرتحل إثر المحبوبة، وشرع في الرحلة، فوصف الناقة التي ارتحل عليها، وأظهر ما تلاقيه في سفرها من جهد وجوع، وما يصادفه هو في تلك القفار ولياليها المرعبة من أخطار مهلكة، ويتراءى لنا في هذا المشهد أنّ الشاعر يلجأ إلى إسقاط لما في نفسه

---

(7) السابق، ص76

(8) الشمري، حافظ محمد عباس، (2014)، كثير عزة بين ناقديه قديماً وحديثاً، ط1، مركز الكتاب الأكاديمي، ص181

(9) كُثير عزة، ديوانه، ص77

من صراع فكري وتَشَظٍّ لذاته الحائرة، نتيجة التحوّل في التبعية مما تُمليه عليه عقيدتُه الشيعية وحبّه لآل البيت إلى ما يُمليه عليه واقع المتغلّب القوي:

مَتى أَخشَ عَدوى الدار بَيني وَبَينَها   أَصِل بِنواصي الناجِياتِ حِبالَها
عَلى ظَهرِ عادِيٍّ تَلوحُ مُتونُهُ   إِذا العيسُ عالَتهُ اِسبَطَرَّت فَعالَها
وَحافِيَةٍ مَنكوبَةٍ قَد وَقيتُها   بِنَعلي وَلَم أَعقِد عَلَيها قِبالَها
لَهُنَّ مِنَ النَعلِ الَّتي قَد حَذَوتُها   مِنَ الحَقِّ لَو دافَعتُها مِثلُ ما لَها
إِذا هَبَطَت وَعثاً مِنَ الخَطِّ دافَعَت   عَلَيها رَذايا قَد كَلَلنَ كِلالَها
إِذا رَحَلَت مِنها قَلوصٌ تَبَغَّمَت   تَبَغُّمَ أُمِّ الخِشفِ تَبغي غَزالَها (10)

وفي نهاية الرحلة يربط الشاعر حبه لعزة بحبه لبني أُميّة، فيذكر أنّ نفسه لم تبلغ غايتها وأملها من حبّه لبني أميّة، فتوجه بناقته إلى ذي دوران وبردى وسفح راهط وأكناف تُبنى حيث يحلّ عبد الملك بن مروان:

تَذَكَّرتُ أَنَّ النَفسَ لَم تَسلُ عَنكُمُ   وَلَم تَقضِ مِن حُبّي أُمَيَّة بالَها
وَإِنّي بِذي دَورانَ تَلقَى بِك النَوى   عَلى بَردي تَظعانَها فَاِحتِمالَها
أَصاريمَ حَلَّت مِنهُمُ سَفحَ راهِطٍ   فَأَكنافَ تُبنى مَرجَها فَتِلالَها(11)

لقد وجد كثيّر فسحةً في مقدمته الغزلية ليفصح عن حبّه لعزة، ويعبّر عن معاناته جرّاء رحيلها، كذلك مكنته من استرجاع الماضي الجميل الذي عاشه في ظل نعمة وافرة بجوار محبوبته، إذن هذه المقدمة كانت إفصاحية ولم تكن موجهة إلى الآخر، فلم يكن همّ الشاعر أن ينحو بمقدمته منحى تقليديا أساسه مراعاة الأصول الثابتة لهذه المقدمة، بل استغلّ القوالب القديمة للتعبير عن تجارب وأحاسيس صادقة جاشت في نفسه.

ويؤيد ذلك أنه طوّع بعض التقاليد القديمة لتتلاءم مع أسلوبه الغزلي، وبدا ذلك واضحاً من خلال استعماله أسلوب الحوار، سواء على الصعيد الخارجي وذلك في حواره مع محبوبته، أو على الصعيد الداخلي حين جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يسائله.

اللوحة الثانية: المدح:

---

(10) السابق، ص77-78

(11) نفسه، ص78

ينتقل كُثَيّر إلى الغرض الأساسي من قصيدته وهو مدح عبد الملك بن مروان بادئاً بوصف قصور الأمويين وما فيها من نعيم حيث القيان الحسان ومجالس الضحى، وأنديات العشية التي ينصبها أولئك الأجواد البهاليل للمسترفدين الذين تتلألأ جباههم الغرّ تلألُؤَ مصابيح الرهبان في الليالي، وهم يمشون بالبرود العبقرية يسحبون أذيالها وراءهم ويختالون في عزّ الملك والإمارة، فهم ملوك وأمراء أو أرداف وملوك وأمراء منذ كانوا، وهو بهذا يضفي عليهم كل ما في الإمارة من ترف ومجد عريق:

كَأَنَّ القِيانَ الغُرَّ وَسطَ بُيوتِهِم نِعاجٌ بِجَوٍّ مِن رُماحٍ خَلا لَها

لَهُم أُندِياتٌ بِالعَشِيِّ وَبِالضُحى بَهاليلُ يَرجو الراغِبونَ نَوالَها (12)

ويُنْزِل كثيرٌ عبدَ الملك بن مروان في الصدر من ملوك بني أمية، فيصف دوره في إعادة الأمر إلى بني أمية، فهو الذي ردَّ الله به إلى عبد شمس عزها وسيادتها:

يُحَيّونَ بُهلولاً بِهِ رَدَّ رَبُّهُ إِلى عَبدِ شَمسٍ عِزَّها وَجَمالَها (13)

وإذا أنعمنا النظر في القصيدة محاولين تقصي الركائز الأساسية التي قام عليها ملك عبد الملك بن مروان نجد أن كثيّرا جعلها في ثلاث ركائز: أولاها أن التثبيتَ مستمدٌ من الله عزّ وجلّ، فهو يصل كل شيء من أمور عبد الملك بالله وينسبه إلى الله، فالله هو الذي ردّ بعبد الملك بن مروان العزَّ والسيادة لعبد شمس، وخيلُ عبد الملك التي كان يقاتل بها خصومه السياسيين من شيعيين وزبيريين وخوارج هي خيل الله، والله من أبى أنْ تُسامَ الخلافةُ بالذلّ حينما قيّض بني أميّة للنضال عن أحساب المسلمين وشرفهم:

وَخَيلٍ بِعاناتٍ فَسَنَّ سُمَيرَةٍ لَهُ لا يُرَدُّ الذائِدونَ نِهالَها

إِذا قيلَ خَيلَ اللَهِ يَوماً أَلا اِركَبي رَضيتَ بِكَفِّ الأُردُنِيِّ اِنسِحالَها

إِذا الناسُ ساموها حَياةً زَهيدَةً هِيَ القَتلُ وَالقَتلُ الَّذي لا شَوى لَها

أَبى اللَهُ لِلشُمِّ الأَلاءِ كَأَنَّهُم سُيوفٌ أَجادَ القَينُ يَوماً صِقالَها

فَلِلَّهِ عَينا مَن رَأى مِن عِصابَةٍ تُناضِلُ عَن أَحسابِ قَومٍ نِضالَها (14)

---

(12) السابق، ص79

(13) نفسه، ص80

(14) السابق، ص83

وهنا تبدو أول ملامح الردّة الفكرية والتحوّل في التبعية من المذهب الشيعي الذي اعتقد به وآمن بأحقية مطالبه إلى الإقرار بأحقية الأمويين بولاية أمر المسلمين، فهو ينسب كل شيء من فضائل عبد الملك وانتصاراته وأعماله إلى الله عز وجل، وفي ذلك إشارة إلى حق الأمويين في الخلافة، وهو ما يمكن أن نسميه الحق الإلهي.

وثانية هذه الركائز: أنه استحق الخلافة بما ملأ الأرض عدلاً، وبما نَعُم الناس به من أمن وخير، فانتشروا في سهول البلاد وجبالها آمنين على أموالهم وأنفسهم:

بلوهُ فأعطوهُ المقادة بعدما　　　أدبَّ البلادَ سهلَها وجبالَها [15]

فإضافة إلى التفويض الإلهي الذي أثبته لعبد الملك بن مروان، ينسب هنا استحقاقه للخلافة إلى اختيار الناس ورضاهم بخلافته، فالناس أنفسهم هم الذين بايعوه بمحض إرادتهم عن إيمان ورضا به بعد أن لمسوا عدله.

وأخرى هذه الركائز: القوة والحزم، فنرى كُثيّرا يمجّدُ انتصارَ عبد الملك بن مروان وفوزه بالخلافة التي انتزعها بحدّ المشرفي بعد أن كادت أيدي الخصوم تتخطفُها، وهذا تمجيد يُزري بكل هؤلاء الخصوم:

أحاطتْ يداهُ بالخلافة بعدَما　　　أرادَ رجالٌ آخرونَ اغتيالَها
فما تَرَكوهَا عَنْوَةً عَنْ موَدَّةٍ　　　ولكنْ بِحَدِّ المَشْرِفيّ اسْتقالها [16]

ويلحُّ في التركيز على صفات الحزم التي كان يتّصفُ بها عبد الملك بن مروان، فهو لا يفتأ يلحُّ عليها، فبحزمه بلغَ من المعاني والمجد ما لم يبلغْه غيرُه، واحتوى المجدَ بين كفيه. كلُّ ذلك لِيُثبتَ الركيزةَ الأخطر التي يقوم عليها أمرُه كلُّه وهي جدارته للاضطلاع بأعباء الخلافة:

وكُنتَ إذا نابتك يوماً مُلمَّةٌ　　　نبلْتَ لها - أبا الوليدِ - نبالَها
سموتَ فأدركتَ العلاءَ وإنَّما　　　يُلقّى عليّاتِ العُلا مَنْ سَما لها
وَصُلْتَ فَنَالتْ كفُّكَ المجدَ كلّهُ　　　ولم تبلُغِ الأيدي السّوامي مصالَها [17]

---

(15) نقسه، ص81

(16) نفسه، ص80

(17) السابق، ص84

ويسهب كُثيّر في تعليل أسباب فوز عبد الملك بن مروان بالخلافة وانتصاراته على منافسيه، فينوّه بشجاعته في الحروب وقيادته المباشرة للكتائب المرابطة التي ما انفكّ يبعثها تترى على خصومه ويدهمهم بها حتى أرهقهم وأنهكهم، فملّوا قتاله وأسلموا له أمرهم، فهو رجل حروب محنك قوي البنيان، فقد تسربل بدرع سابغة، قد حبكَ المسدي نسج حلقاتها حبكاً محكماً، فكانت لجودة حبكها ومضاعفة نسجها ثقيلة ينوء غيره بحملها:

على ابن أبي العاصي دِلاصٌ حصينةٌ　　أجادَ المُسدّي سردَهَا وأذالَها
يؤودُ ضعيفَ القوم حملُ قتيرِها　　ويستضلعُ الطِّرفُ الأشمُّ احتمالَها

وليس مستهجناً أن يسهب كُثيّر في تمجيد عبد الملك بن مروان بالحزم والإقدام في الحروب نظراً لكثرة المعارك التي خاضها لجمع زمام الدولة التي تمزقت أطرافها وتجاذبَتْها الفرق المتحاربة، لذلك نراه يعرض في القصيدة صوراً من معاركه مع خصومه مركزاً على قيادته وشجاعته الفائقتين وهو يخوض بنفسه غمار الوغى على رأس كتائبه الباسلة:

وحربٍ إذا الأعداءُ أنشتْ حياضَها　　وقلَّبَ أمراسُ السَّواني محالَها
وردْتَ على فُرّاطِهِمْ فدهَمتَهُمْ　　بأخطارِ موتٍ يلتهمنَ سِجالها
وَقَارِيَةٍ أحْوَاضَ مجدِك دونَها　　ذياداً يُبيلُ الحاضناتِ سِخالَها
وشهباءَ تردي بالسَّلوقيِّ فوقَها　　سنا بارقاتٍ تكرهُ العينَ خالَها
قصدتَ لها حتّى إذا ما لقيتها　　ضَرَبتَ بِبُصْرِيّ الصَّفِيحِ قَذَالَها[18]

ويتوج مديحه لعبد الملك بن مروان بأن جعله يَفْضُلُ الناسَ جميعاً في مزاياهم، فما من صفة حسنة اتّصف بها إنسان إلا كانت عند عبد الملك أعلى تمثلاً واتّصافاً:

فأُقسِمُ ما مِنْ خُلَّةٍ قد خَبِرْتَهَا　　من النّاسِ إلاّ قد فضلْتَ خلالَها
وَمَا ظَنّةٌ في جنبكَ اليومَ منهمُ　　أُزَنُّ بها إلاّ اضطلعتُ احتِمالَها[19]

وكأنّ كُثيّراً يرمي إلى إصابة وجدان عبد الملك بن مروان، لِيُقنعَه أنّ ولاءَه قد تحوّلَ بالكامل من حبّه لآل البيت إلى حبّه للقويّ المتغلّب الذي يستحقُّ الحب والولاء، بما مَلكَ من صفات الشجاعة والحزم.

---

(18) نفسه، ص84

(19) السابق، ص86

لذا نستطيع أن نقول بعد ذلك: إن كُثيّراً جعل من هذه القصيدة لوحةً سياسية بثَّ فيها كلَّ ما شاء من أمجاد لعبد الملك، ولوّنَها بكلّ ما أراد أن يتحلى به هذا الخليفة من مزايا وخصائص ترشحه للخلافة وتشهد له بأهليته ومن ثم بأحقيته في توليها.

والسؤال الذي يثور في الأذهان هنا: أحقّاً ارتدّ كُثيرٌ عن فكره التشيّعي؟ وإن حدثَ ذلك فلماذا انحرفَ عن فكرته في التشيع لآل البيت، وغدا يرى أنَّ الخلافةَ حقٌّ للأمويين بعد أن كان يراها حقاً لأهل البيت؟

زعمَ كُثيّرٌ أن عبدَ الملك هو الذي حوَّلَه إلى موالاته، فما زال يتلطف به ويتحيّل في استمالته ويستعين عليه بأهل الدهاء والكياسة حتى استلَّ أحقاده وأضغانه، وتلّه إلى حضيرته:

وإنَّ أميرَ المؤمنين هو الذي غزا كامناتِ النُّصح منّي فنالَها [20]

ويضيف إلى ذلك أنه مدح عبد الملك بسبب صحبة قديمة وعهود يحبُّ الشاعر أن يرعاها، وبسبب إحسانٍ سالفٍ كان يعرفه ويزيده في فضائله عليه:

وإنّي مدلٌّ أدّعي أنَّ صُحبةً وأسبابَ عَهْدٍ لَمْ أُقَطّعْ وصالَها
هو المرءُ يجزي بالمودّة أهلَها وَيَحْذُو بِنَعْلِ المُستَثِيبِ قِبَالَها [21]

وتبدو الردّة الفكرية في ذروتها عندما أعلن كُثيّر براءتَه من العُصبة الشيعية لمّا تبيّنَ له ضلالها، فقد غدت عَدوَّةً له؛ لأنها حادت عن الحق بعد أنْ ظهرَ جلياً لها:

فلا تجعلنّي في الأمورِ كَعُصْبَةٍ تبرَّأتُ منها إذْ رأيتُ ضلالَها
عدوٍّ ولا أخرى صديقٍ ونُصحها ضعيفٌ أبَت الحقّ لمّا بدا لها [22]

فهو يتوسّل إلى عبد الملك بن مروان بأن يميزَه عن تلك العُصبة الضالة العدوّة التي انتبذها وتبرّأ منها، ويميزه كذلك عن الأخرى التي تتظاهرُ بالصداقة وتضمرُ ضدَّها.

وأغلب الظنِّ أن هذا كلّه نفاق وملق؛ لأن عقيدة كثيّر كانت عميقة، وإيمانُه بحقّ آل البيت بالخلافة إيمانٌ متجذّر، فليس من السهل أن يتغير ويتبدل بالإغراء أو بسالف

(20) نفسه، ص87

(21) نفسه، ص 88

(22) السابق، ص88

الإحسان المزعوم، فلم تكن علاقة كُثيّر بآل البيت مبنيةً على المصلحة والكسب، بل على الحق والبذل، فالمعروف أن كثيّرا شيعيٌ قديم الإيمان بحق آل البيت، وإيمانه بحقهم ممتزج بحبه لهم، فهم من بيت النبوة في الإسلام وبيت السؤدد في الجاهلية، وله أشعار كثيرة يحتجّ فيها لحقّ أئمة آل البيت بالخلافة[23]، فالأصل في هذا الإيمان القديم أن يكون راسخاً لا يتغير، ولكنّ كثيّرا صَغرت همته وضعفت نفسه عن التضحية في سبيل ما آمن به، فدفعه خوفه من عبد الملك إلى هذه الردة الفكرية عن غير قناعة حقيقية.

ويُؤيّد هذا ما ذهب إليه صاحب العِقد الفريد، يقول: "كثير عزة والكميت بن زيد كانا شيعيين غاليين في التشيع، وكانت مدائحهما في بني أميّة أشرفَ وأجودَ منها في بني هاشم؛ وما لذلك علّة إلا قوة أسباب الطمع"[24]

وحشد كُثيّر في قصيدته هذه كل ما يثبت لعبد الملك أنه ارتدّ عن فكره الشيعي، ونلمح إلى ما كنا قد ذكرناه عن الركائز التي أرساها كثيّر في إثبات أحقية عبد الملك بن مروان بالخلافة، وهي الحق الإلهي، ورضا الناس، وصفاته الشخصية التي أقنعت الناس، وهذا يناقض الفكرة السياسية الأساسية التي كان يقولها ويلهج بها في شعره الشيعي من أن الخلافة هي وصية النبي لعلي وأبنائه، فهي في عقيدة كثيّر تعيين بالنصّ الذي لا يقبل الجدال.

وجاء تركيز كُثيّر على موجبات الخلافة لعبد الملك بن مروان في هذه القصيدة ليثبت لعبد الملك أنه تاب وارتجع عن فكره الشيعي، وأن فكرة ارتباط شرعية الخلافة بالوصية قد تلاشت، وكأنه يَعِد عبد الملك بن مروان بصيرورة صادقة ومستقبل آمن مليء بالولاء والطاعة، وهنا تفوح ملامح النفعية وتضمحلّ القناعة الفكرية؛ فعمله هذا ليستدرَّ عطف عبد الملك ولينالَ عطاياه.

---

(23) حمد، عبد الله خضر، (2017)، اتجاهات النقد العربي القديم، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، لبنان، ص104

(24) ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد، (2013)، العقد الفريد، تح : مفيد قميحة،ط2، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ج 6،ص176.

وإذا تجاوزنا الركائز الثلاث التي اعتمد عليها كثيّر في إثبات أحقية عبد الملك بالخلافة، وتأملنا القصيدةَ وسبرنا غورَها فَسنُحِسُّ أنَّ كُثيّراً لا يمدح خليفة بمعاني الخلافة الإسلامية الحقّة، فلم يذكرْ زهدَه وإعراضَه عن الدنيا ومباهجِها، ولم يتحدثْ عن صلاحِه وتقواه وبرِّه بالفقراء والمساكين، وإقامته شرع الله، وخشيته لله وعمله للآخرة، أو ما شابه تلك المعاني التي ينبغي أن يتّصف بها الخليفة المسلم، بل نراه يمدحه بمعاني الملك والإمارة الموشاة بزينة الدنيا بعيداً عن معاني الخلافة والإسلام، ويُسبغ على ملكه الأبّهة والفخامة وكل معاني المجد والعظمة والفخار، ويشيد بطموحه وقتاله في سبيل الخلافة. فنحسّ أنه يمدح ملكاً من عظماء الملوك أكثر مما نحسّ إنه يمدح خليفة من خلفاء المسلمين، مع غلوّه في التمجيد والتعظيم والتفخيم غلواً كبيراً يشهد بنفاقه السياسي، وكل هذا لينتزع نفسه من تهمة الولاء للشيعيين.

إن أبرز ما نلحظه في قصيدة كُثيّر من الخصائص الفنية هو التفصيل في الوصف والتنسيق الدقيق في عرض موضوعاته، بحيث لا يترك الموضوع حتى يستقصي أبعاده ويستجمع أطرافه ويستوفي معانيه كلها، ثم يعرضه عرضاً منسقاً دقيقاً، ويتجلى ذلك في لوحة المدح؛ إذا بدأها بالإشارة إلى فوزه بالخلافة غلاباً بحدّ السيف ليثبت قوته الفائقة على خصومه:

أحاطتْ يداهُ بالخلافة بعدَما   أرادَ رجالٌ آخرونَ اغتيالَها [25]

ثم وجه كل معانيه فركزها على الخلافة وعبد الملك، وراح ينسب له كل الصفات التي تؤهله وتثبت جدارته للاضطلاع بأمرها، فهاجم المناوئين الذين اشرأبوا لها، ثم أسلموها له عجزاً وقهراً بعد أن ظهر عليهم بمقدرته الحربية، وأما الناس، فقد بايعوه عن طاعة ورضا بعد ما رأوا الأمن الذي نشره عليهم بتوليه الخلافة:

بلوهُ فأعطوهُ المقادة بعدما   أدبَّ البلادَ سهلَها وجبالَها [26]

ثم أخذ يعرض صورة واسعة لحروبه مع هؤلاء الأعداء الذين انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، ليشير من وراء ذلك إلى أن النصر في المعارك أقوى دلائل السيادة وأعظم صفات

(25) كُثير عزة، ديوانه، ص80

(26) السابق، ص81

الزعامة الحقّة، خاصة إذا كان الانتصار على أولئك المنافسين أنفسهم الذين يزعمون أنهم أحقُّ منه بالخلافة، ويزيد من نشوة الانتصار إنه كان بنفسه يقارعهم على رأس كتائبه، فنرى كُثيّرا يصف خيل كتائب عبد الملك ومسيرها إلى الأعداء فقال:

مقانبَ خيلٍ ما تزالُ مُظلَّةً   عليهمْ فملُّوا كلَّ يومٍ قتالَها
دوافعَ بالرَّوحاءِ طوراً وتارةً   مَخَارِمَ رَضْوى مرجَها فَرِمَالَها
يُقيِّلنَ بالبِزْواءِ والجيْشُ واقِفٌ   مزادَ الرَّوايا يصطبِنَ فضالَها
إذا عرضتْ شهباءُ خطّارةُ القنا   تُرِيكَ السُّيُوفَ هزَّها واستلالها (27)

وانتقل بعدها إلى وصف كتائبه وسلاحهم وفرسانهم وبسالتهم في القتال، فقال:

رَميتَ بِأَبْنَاءِ العُقيميّةِ الوَغَى   يؤمّون مشيَ المُشبلاتِ ظلالَها
كأنَّهُمُ آسادُ حَلْيَةَ أصبَحَتْ   خَوَادِرَ تحمي الخيلَ ممّن دَنا لها
إذا أخذوا أدراعهُمْ فتسربلوا   مُقَلَّصَ مَسْرُوداتِها وَمُذالها (28)

وبعد أن وصف كتائب الطرفين، وهما على تلك العدة والسلاح والأهبة والتوثّب للحرب، أبرز الشاعر عبدَ الملك على رأس كتائبه، وأخذ يصف صياله الشديد وهجماته على كتائب الخصوم.

ثم رأيناه كيف صوّر عبد الملك وهو على قمة هذا النصر، ورفعه إلى ذروة العلياء مشيدا بهمته التي احتوت المجد بكلتا يديه بينما تقاصرت أيدي الطامحين، ورأيناه بعد ذلك كيف صوّر عبد الملك بصورة رائعة وهو متسربل بالحديد.

ويمضي على هذا النحو الدقيق في الوصف التفصيلي، وقبل أن يختم قصيدته يلتفت نحو بني أُميّة وبني مروان مخاطباً من قد تحدّثه نفسه منهم بالوثوب على عبد الملك وهو في خضم هذه الظروف التي لمّا يستتب له فيها أمر الخلافة، ويذكّرهم بأن الفضل في بقاء الأمر في يد بني أُميّة إنما يعود لموقف أبيه مروان بن الحكم الذي تدارك أمرهم بعد أن كاد يخرج من أيديهم، وحفظ عليهم قبة الملك بعد أن زعزعتها القلاقل وكادت تتهاوى:

فلا تَكْفُرُوا مروانَ آلاءَ أهلِهِ   بني عبد شمسٍ واشكروهُ فعَالَها

---

(27) نفسه، ص80-81

(28) نفسه، ص83

أبُوكمْ تَلاَفى قُبّةَ المُلْكِ بعدما هوى سمكُها وغيّرَ النّاسُ حالَها [29]

وفي نهاية القصيدة يعلن توبته عن مخاصمة الأمويين، وأنه قد تبرّأ من العصبة الضالّة واستجاب إلى دعوة عبد الملك، وأشار إلى ارتياح عبد الملك لمجيء كثيّر وصيرورته إليه.

لا شك أن التفصيل والتوسع واضحان في كل ما قدّمناه، خاصة في تتبع صفات عبد الملك التي تتصل باستحقاقه للخلافة، وواضح أيضا استقصاؤه لكل ما يدور حول الخلافة من صراع فكري وحربي، ودقة التنسيق والتسلسل في عرض مراحل الموضوع.

أما عن أساليبه البيانية من تشبيهٍ واستعارة وكناية وخيال [30]، فمعظم صوره مستمدة من حياة البادية ومستوحاة من بيئته البدوية، فانظر إليه كيف عبّر عن النعمة التي كان مشغولاً بها مع محبوبته حيث القرب والمحبة الحميمة، فشبّه نفسه وحبيبته بناقةٍ ألفت بعيراً حتى غدت لا تطيق فراقه ولا هو يطيق فراقها:

وقدْ لفَّنا في أوَّلِ الدَّهر نعمةٌ فعشنا زماناً آمنين انفتالَها

كآلفةٍ إلفاً إذا صَدَّ وِجْهَةً سوى وجههِ حنَّتْ فارعوى لها [31]

ومثل هذا تشبيهه إماء بني أمية وهن يمرحن في خلال قصورهم بنعاجٍ خلا لها الجوّ، فهي ترود وترعى كما تشاء:

كأنَّ القيانَ الغُرَّ وسطَ بيوتِهمْ نعاجٌ بجوٍّ منْ رُماحٍ خلا لَها [32]

وهذا التشبيه يَقِفُنا على خصيصة أخرى مرتبطة بتشبيهات كثيّر، وهو أنه كان يستقصي طرفي التشبيه؛ فيعقد التشبيه بين مشبه ومشبه به يكونان متشابهين في معظم جوانبهما، فنستطيع أن نلمح غير تشابه واحد في المشبهين السابقين، مثل: الجمال وخفة الحركة واللون والانطلاق في فضاء فسيح، ولا يخفى هنا إنه يكنّي عن سعة قصور الأمويين إذْ سمحت للإماء أن تمرح خلالها كما تمرح البقر الوحشي في الفلاة.

---

(29) السابق، ص87

(30) سعفان، أحمد حسين عبد الحليم، (1981م)، الصورة الفنية في شعر كثير عزة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

(31) كُثير عزة، ديوانه، ص76

(32) السابق، ص79

ويلحظ أن كُثيّراً أكثرَ من توظيف الكنايات لِيَنعتَ ممدوحَه بالصفات الحسنة، سواء من تلك الكنايات الظاهرة للعيان أو تلك التي تحتاج إلى لطيف تأمّل كالتي ذكرناها آنفاً، ومن كناياته الظاهرة:

وَصُلْتَ فَنَالتْ كفُّكَ المجدَ كلّهُ ولم تبلُغِ الأيدي السّوامي مصالَها (33)

ففي ذلك كناية عن نسبة المجد لعبد الملك بن مروان، وأنه وصل قمة هرم المجد في حين عجز الآخرون عن ذلك:

تبلّجَ لمّا جئتُ واخضرَّ عُودُهُ وبلَّ وسيلاتي إليهِ بِلالَها (34)

فكنّى على الانشراح والأريحية باخضرار العود، وكنّى عن الصلة والعطاء بقوله: (بلَّ وسيلاتي).

أما عن لغته وأسلوبه، فيظهر جلياً أن ألفاظَه واضحةٌ تشفُّ عن معانيها، فلا نكادُ نرى فيها تعقيداً أو غموضا، بل هي ألفاظٌ مألوفةٌ مأنوسة، تنتمي إلى معجم المثقف العادي، لكن ربما بدت الغرابة قليلا على الألفاظ حينما وصف الناقة وذكر الأماكن، إذْ عمد في ذلك إلى الألفاظ البدوية التي لا تخلو من الوعورة، ولو تتبعنا هذه الألفاظ لوجدناها محصورة لا تُخرِج القصيدة عن الوضوح والألفة، من هذه الألفاظ قوله:

على كلّ خِنْذِيذِ الضُّحَى مُتمطِّرٍ وخيْفانةٍ قَدْ هَذَّبَ الجَرْيُ آلَها (35)

وطبيعيٌ أن ينعت الإبل والظعن والرسوم بأوصاف ونعوت مستمدة من صميم بيئته البدوية، وذلك حتى تعكس الواقع وتصوره تصويراً صادقا.

الخاتمة:

يمكن أن تخلص الدراسة إلى:

1- أنّ كُثيّرَ عزة استثمر المقدمة الغزلية للتعبير عن تشظيه بين حالين: حال الحنين إلى الماضي المتمثل في هناءة العيش في ظلال المحبوبة وحال معاناته من هجر

(33) نفسه، ص85

(34) نفسه، ص88

(35) السابق، ص82

المحبوبة، وربما يكون كُثيّرٌ أسقط هذين الحالين على ما في نفسه من صراع فكري وتَشَظٍّ لذاته الحائرة بين حالين أيضاً: حال التبعية لآل البيت وحبّه لهم وحال ما يفرضه عليه واقع المتغلّب القوي فيتحول بولائه إلى بني أُميّة.

2- وظهر كيف حاول كُثيّر أن يثبتّ ولاءَه لبني أمية، فراح يمجّد عبد الملك بصفاتٍ تؤهلّه ليكون خليفة المسلمين بحقّ، وبيّن أن هذه الأحقية تقوم على ركائز ثلاث: الحقّ الإلهي، وصفة العدل التي جعلت الناس ينعمون بالأمن والطمأنينة، وصفة القوة والحزم وهو ما مكنه من انتزاع المُلك من خصومه.

3- وقد توسّع في الوصف التفصيلي فتتبع صفات عبد الملك بن مروان واستقصاها خاصة تلك الصفات التي تمنحه الأحقية في خلافة المسلمين. وأكثر من الصور البيانية والكنايات المستمدّة من البيئة البدوية ووظفها توظيفاً حسناً لتعميق المعنى وتزيينه.

المراجع

1. ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد، (2013)، العقد الفريد، ج6، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، تح: مفيد قميحة.

2. حمد، عبد الله خضر، (2017)، اتجاهات النقد العربي القديم، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت / لبنان.

3. سعفان، أحمد حسين عبد الحليم، (1981م)، الصورة الفنية في شعر كثير عزة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

4. الشمري، حافظ محمد عباس، (2014)، كثير عزة بين ناقديه قديماً وحديثاً، ط1، مركز الكتاب الأكاديمي.

5. عليان، أحمد محمد، (1992م)، كُثير عزة: عصره حياته وشعره، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

6. القط، عبد القادر، (1979)، في الشعر الإسلامي والأموي، بيروت: دار النهضة العربية.

7. كُثير عزة، عبد الرحمن بن الأسواد، (1971) ديوانه، جمع وشرح: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة.

8. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، (1982م) معجم الشعراء، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.